

نموذج للرواية المتأففة بقية المعاصرة

تأليف وليم بيردلافي
ترجمة محمد الحديدي

طار الشياطين



« ولما خرج الى الارض استقبله رجل من المدينة كان فيه شياطين منذ زمان طويل ، وكان لا يلبس ثوبا ولا يقيم في بيت بل في القبور . فلما رأى يسوع ، صرخ وخر له وقال بصوت عظيم : مالي ولك يا يسوع يا ابن الله العلي ؟ اطلب منك الا تعذبني . لانه امر الروح النجس ان يخرج من الانسان ، لانه منذ زمان كثير كان يخطفه . وقد ربط بسلاسل وقيود محروسا ، وكان يقطع الربط ويساق من الشيطان الى البراري . فسأله يسوع قائلا : ما اسمك ؟ فقال : لجئون ، لان شياطين كثيرة دخلت فيه . وطلب اليه ان لا يأمرهم بالذهاب الى الهاوية . وكان هناك قطع خنازير كثيرة ترعى في الجبل ، فطلبوا اليه ان ياذن لهم بالدخول فيها فاذن لهم ، فخرجت الشياطين من الانسان ودخلت في الخنازير فاندفع القطيع من على الجرف الى البحيرة واختنق . »

لوقا ٨ : (٢٧ - ٢٤)

يمارسون في الغرب هذه الايام - فيما ياتون به من « تقاليع » - شيئا اسمه « عبادة الشيطان » . ولم لا ؟ ما دام لدينا اللمولدينا ابليس ، فلماذا نختار هذا ونبتد ذلك ؟ وبناء عليه فقد انشئت « كنيسة ابليس الاولى في سان فرانسيسكو » التي يحميها قانون ولاية كاليفورنيا . انشأها سنة ١٩٦٦ مدرب حيوانات سابق يدعى « انطون لافي » ، وتمارس فيها طقوس وعقائد واخلاقيات تقلب تعاليم المسيحية ، فمثلا « من ضربك على خدك الايمن ، حطم خدك الايسر » ، « طوبى للاقوياء ، لانهم سيرثون الارض » . وينتمى لهذه الكنيسة عشرة آلاف شخص ، كثيرون منهم من خريجي الجامعات ، يتقابلون في ضوء القمر ، ويخلعون ملابسهم و « تآخذهم الجلالة » فينهمكون في رقصات شيطانية او يفرسون الابر في عرائس على شكل اعدائهم .

وفي شيكاغو يوجد « معبد الطريق الوثنية » . وفي انجلترا ، تنظم شركة « بان اميركان » للطيران دورة سياحية خاصة (تكلف ٦٢٩ دولارا ، لمن يرغب) تسمى « الدورة الروحانية » ، تتضمن زيارة لمركز العلاج الروحاني ، وجلسة تحضير ادواح ، بل ان (الحركة) وصلت في انجلترا الى حد ان مجلسا مسكونيا من الانجليكسان والكاثوليك اوصى - مقاومة لهدف الحركة - بان تعين كل ابرشية « طاردا » (EXORCIST) ليطرد الشياطين والعفاريت والارواح

الشريرة . وفي فرنسا ، تتحدث في الاذاعة كل اسبوع عرافة اسمها « مدام سولي » لتدلي بنصائحها لجمهور المستمعين ، ويقال ان ما يسمى « القداس الاسود » - وهو ما يتمثل كثيرا في الرواية موضوع مقالتنا هذه - يعقد بكثرة في باريس وليون ، وفي المانيا ، يقدر عدد المنتمين للكنائس والعقائد الشيطانية بثلاثة ملايين ، و عدد « المتعاطفين » معهم بسبعة ملايين ، وفي سويسرا ، منذ سنوات قليلة ، عذبت فتاة حتى الموت عملا على طرد الارواح التي تلبستها .

ولكي لا يطول بنا الحديث وتخرجنا العفاريات عن موضوعنا ، سنكتفي بان نضيف ان العقيدة الجديدة تنقسم الى اربع فئات رئيسية : « الابليسية » ، وتدعو الانسان الى الالتزام بطبيعته الحيوانية والتجرد من كل ما هو روحاني ومن كل ما يدعو لانكار الذات ، وهذه هي « ديانة » لافي (يبدو ان الحيوانات اثرت فيه باكثر مما يعرف هو) ، ثم (السحر) ، وهذه طائفة تتزعمها امريكية اصبحت مليونيرة من هذا الطريق تدعى « سيبيل ليك » (وكلمة سيبيل ، لقب يطلق على الساحرات منذ اساطير الاغريق) . تزعم انها تنحدر من نسل من الساحرات يرجع الى سنة ١١٢٤ . وهؤلاء

يعارضون الإبليسية ويقولون بانها هي الموت ، اما السحر فهو الذي يطيل الحياة ويحفظها .

نأتي بعد ذلك « النبوءة » وهي التعرف على المستقبل والتحكم فيه ، بدلا من (الرضا بالقضاء) وهو (الموضة القديمة) ، ثم « الروحانية » ، وهؤلاء يلجأون الى الارواح في كشف خبايا الماضي والحاضر والمستقبل ، والمعالج الطبي ، ومحاربة الاعداء .

مثل هذه الافكار آثارها العملية والفكرية . ففي مجال الفكر، يوجد في سان فرانسيسكو ايضا « المركز الميتافيزيقي » ويحوي مكتبة ودارا لبيع الكتب ، ويقدر ما يبيعه لقراء الغيب والعفاريت كل شهر بحوالي ٦٠ ٪ من رصيده الذي يبلغ ٢٥ ألف دولار من المراجع « القيمة » ، كما يعقد الدورات التدريبية في تحضير الارواح والتنجم وبيع الملابس الخاصة بالجلسات ، والبخور والاعشاب والتعاويذ والاحجية والكرات البلورية وكل انواع « العدة » . وفي السنوات الاخيرة ، خرجت الى قراء الادب كتب وقصص وروايات تمثل الموجة الجديدة . منها « طفل روزماري » للكاتب الاميركي اليهودي « ايرا ليفين » والتي تصور ميلاد ابن ابليس في نيويورك من امريكية تدعى « روز ماري » ، وتتخذ تقويما (ميلاديا) جديدا يجعل سنة ١٩٦٦ هي (سنة واحدة) ، وقد تمت الولادة على يدي طبيب يهودي . وقد اعدت هذه القصة للسينما وعرضت في مصر سنة ١٩٦٨ ، وتبعها موجة من الكتب منها (تليس جويل ديلاي) و « الاخر » ، واخرها كان هذه الرواية THE EXORCIST التي نشرت في اواخر العام الماضي وما تزال حتى الآن من اوسع الكتب انتشارا في العالم كله . والذي فعله ليفين بقصة ميلاد المسيح، يفعله ولیم بلاتي بالإصحاح الثامن من انجيل لوقا ، فهو يقلبه لتأتي النتيجة مناسبة « لحقائق » هذا العصر ، من الذي يسقط في (الهاوية) سنة ١٩٧١ ؟ ليس الخنازير بالطبع . من اذن ؟

سنتناول القصة من ناحيتها : الفلسفية والفنية ، لنخرج من ذلك بما فيها من فكر ميتافيزيقي ، وفكر ادبي او روائي، خاصة الاتجاهات الشيطانية هذه الايام ! والاتجاهات الروائية المعاصرة اكثر تضاربا وتغيرا وابتداعا من هيكल الرواية :

نحار أولا في هذا الاسم THE EXORCIST ، ونعتمد للقارئ فهي كلمة لا نظن ان لها في العربية مقابلا لا يختلف عليه اثنان (✽)، فهي تعني كل من يصرف الشياطين والارواح الشريرة بالصلاة او الرقي او التعاويذ ، وهو في هذه القصة قسيس من طائفة الجزويت جاءوا به خصيصا ليطرده الشيطان من جسد طفلة في الثانية عشرة ، وقد سبق له ان أجرى هذه الطقوس مرة غير هذه .

تنقسم الرواية الى : مقدمة بعنوان « في شمال العراق » ، حيث يقدم لنا المؤلف هذا القسيس الكبير - ويدعى « ميرين » - وهو في رحلة كشف اثري ، (ويحادثه واحد من العرب) كمان شاي خوجا ؟ ، « الله ملك خوجا ! » (ثم يلي ذلك اربعة اجزاء عناوينها بالترتيب ، (البداية) ثم « الحافة » ثم الهاوية ثم وليدخل اليك صراخي ، وهي آية ترد في طقوس صرف الارواح ، يرجع اصلها الى الزمور ١٠٢ لداود ، وبعد كل ذلك « نهاية » . هذا التركيب ليس شكليا فحسب ، بل هو سلسلة الاحداث كما بناها المؤلف على القابلة او التقابل بين السيد المسيح ، والرجل الذي تلبسته الشياطين .

(✽) تعليق التحرير : مقابل هذه الكلمة في العربية هو «المزم» (بتشديد الزاي) وهو طارد الارواح الشريرة بالتعزيم او الرقي - راجع قاموسي « المورد » و « النهل » .

تدور الوقائع كلها في ضاحية « جورجنتاون » المجاورة لمدينة واشنطن الامريكية ، وهي جامعة كاثوليكية ، بها اساتذة من قساوسة الجزويت ، ولكي ينقل المؤلف وقائع قصته الى هناك - فهو في حاجة ماسة لهؤلاء القساوسة - يأتي بممثلة ومخرج سينمائي ، ينتقلان مع بقية طاقم التصوير ، الى ساحة الجامعة حيث يجري تصوير فيلم فيها ، ويتخذ للممثلة مسكنا تستأجره هناك .

يبدو ان مؤلفي هذا النوع من القصص يحبون جو « السينما » ، فقد كان زوج روزماري في (طفل روزماري) ممثلا . وهنا ايضا (كريستين مكنيل) ممثلة شهيرة ، منفصلة عن زوجها ، ممّا يضايق ابنتها الصغيرة (ريجان) وهو اقرب اسم امريكي الى ماهو بالعربية « لجنون » ، وبالانجليزية LEGION

هذه البنت في الثانية عشرة وتحب اباهها ولا يعجبها انفصال امها عنه . وهي بذلك تجمع بين اثنين : سن المراهقة ، والتي يقول علماء الارواح انها للفتيات اعلى درجة من « الوساطة الروحانية » ، ثم « الشعور بالذنب » لانه قد تكون سبب انفصال امها عن ابوها ، وبذلك يرسم المؤلف اتجاهين قبل بداية القصة : الاتجاه الميتافيزيقي ، والاتجاه السيكلوجي ، وهو يظل طفلة الرواية - او على الاصح «اغلبها» - مسكنا بهذين الخطين ، فهو يأتي بالخرافة كما يشاء ، ومعها ما يمكن ان يقال انه حالة نفسية لدى هذه الطفلة ، وبذلك يظل « معاصرا » (و علميا) ، وسوف نأتي لذلك .

اما بقية الشخصيات فعلى رأسها : القسيس « ميريسن » ، وقسيس آخر - هو اروع شخصيات الرواية كلها - يدعى « كراس » ، بتشديد الراء ، وهو في ذات الوقت طبيب نفسي . وبذلك فهو يجمع الدين والعلم والسيكلوجيا في رجل واحد ، رجل يعرف الروح والجسد والعقل وفي مكنته ان يداعب كلا منها او الثلاثة معا . لا بأس بذلك ، فالاطباء النفسيون يوجدون ، ولو راق لاحدهم ان يدخل الى سلك الكهنوت فانه سيأتي لنا بمثل هذه الشخصية الهامة . اقصد « الهامة » في موقف كهذا .

الى جانب ذلك هناك : المخرج السينمائي صديق الام ، سكير بذئ اللسان ، وخادمان غامضان يشغلان بالمنزل ، سويسريان اصلا ، وضابط شرطة يظهر على المسرح عندما يقتل المخرج على اثر سقطة في الطريق ويجنونه وقد التوى رأسه واصبح وجهه الى الخلف تماما ، يعني « للخلف در » بالراس فقط ، وكان شيطانا قتله ! يشككنا المؤلف قليلا في الخادمين بنزعة « اجاتا كريستية » خفيفة ما يلبث بعدها ان يعود الى ما هو فيه . بظهور ضابط الشرطة ، تحضر « الحكومة » ، كما حضر ابليس ، وبذلك تكتمل الحلقات على المسرح : الانسان ، والشيطان ، والدين ، والعلم والطب ، والحكومة .

بناء الشخصيات :

لا يجهد المؤلف نفسه كثيرا في بناء شخصيات متميزة ذات خلفيات عميقة الجذور . ولا عجب في ذلك ، فالمؤلفون في هذا العصر قد تخلصوا تماما من هذه « العادة السيئة » ، دستوفسكي وبلزاك وما الى ذلك ... هذه امور تتعلق بصورة كانت الرواية فيها تبلغ سبعمائة صفحة والناس لديهم الوقت للقراءة . اما الان ... فالشخصيات لا تزيد عمقا عن الشخص التي نراها في فيلم سينمائي غير ملون . وعلى هذا فالممثلة مجرد ممثلة ، والمخرج مجرد مخرج سكير ، والطفلة ... طفلة . شيء واحد فقط يشد عن ذلك هو القسيس الطبيب النفسي . شخصيته تلقى العناية التي تستحقها هذه التوليفه . ولكن القصد النهائي هو الحدث ، الحدث الميتافيزيقي والحدث المادي ، فالشخصية في ذاتها ليست هدفا . نجد المؤلف يقطع سياق قصته فجأة - وهي قصة تسير في اطار زمني مطرد مرتب لا خروج عنه - ويرجع بنسا فجأة في « فلاش » عفريتي يذهل القارئ ، ليرينا جنازة ام كراس

اصول الصورة الشيطانية للتلبس ترجع الى المسيحية المبكرة ، والواقع ان التلبس والطرده كلاهما يسبقان المسيحية ، فقد كان قدماء المصريين ، والحضارة المبكرة في كل من دجلة والفرات ، يعتقدون بان الاضطرابات الجسمانية والروحية تنتج عن احتلال الشياطين للجاساد . وهذه مثلا هي التعزيم التي كان قدماء المصريين يستخدمونها لمعالجة امراض الاطفال .

— اذهب من هنا ، انت يا من تاتي في الظلام ، يا من انفه مثنى للخلف ، ووجهه مقلوب لاسفل ، هل جئت لتقبل هذا الطفل ؟ لن اسمح لك ... »

تقرأ الام الكثير من هذا ، ولكنها لسوء حظها — في اشياء كثيرة — لا تستطيع ان تقرأ رسالة الغفران ، والتي لا شك توجد في مكتبة الكونجرس ، على مسافة دقائق بالسيارة من جورجيتاون ، وهكذا يفوتها — برغم كل ما قرأته — قول ابي العلاء على لسان العجني « ابي هدرش » :

وكم عروس بات حراسها كجرهم في عزها او جديس
غرت عليها فتخلجتها بواشك الصرعة قبل المسيس
واسلك الفسادة محجوبة في انخدر او بين جوار تيمس
لا انتهي عن غرضي بالرقي اذا انتهى الضيفم دون الفريس

وان كان في هذا الفصل من الرسالة التي مضى عليها اكثر من الف عام ، سخرية من هذا كله تكفي في حد ذاتها لصرف الشياطين . تلجأ الام — وهي ملحدة لا دين لها ، وكذلك ابنتها بالنشأة — الى العس الجزويتي ، الذي يعمل محاضرا في الطب انتفسي بجامعة جورجيتاون (وان لم يكن طبيبا مرخصا له بمزاولة المهنة ، وذلك بحكم كونه فسيسا) ويفضي العس الطبيب اياما مع ابنته وهي تتخذ شخصيات مختلفة من البشر والفاريت ، وحين لا ينفع معها شيء فإنه يلجأ الى السلطات الكاثوليكية طالبا السماح له باجراء طقوس « التعوذ » او « التعزيم » او « طرد الشياطين » ، والتي يشترط بها موافقة هذه السلطات ، والتي تنص الكنيسة الكاثوليكية في وضوح على انه يجب توفر شروط لها منصوص عنها في كتب « الطقوس » ، يعرض كراس الامر على الاسقف الذي يرى انه لا بد من قسيس « ذي خبرة » ، وهنا يأتي الاب « ميرين » ، يستمعونه من شمال العراق ، وتبدأ الطقوس ويصفها لنا المؤلف وصفا بالغ الروعة يدل على خلفية دينية وثقافية عريضة ، ولا غرو فهو نفسه خريج جورجيتاون وتربى على يدي الجزويت .

من هنا يبدأ « الشيطان » يصبح اكثر صراحة ، وتبدأ الظواهر الغريبة في الوضوح ، ويخلق السرير في الهواء، وتزعق «البنت» باسم القسيس وهو على عتبة البيت وما الى ذلك . تستند المعركة مع القسيس الذي سبق له ان هزم الشيطان مرة قبل هذه ، وفي فترة راحة تقرأ هذه المحادثة الرائعة بينه وبين الاب كراس ، في الخطيئة والارادة . « قال كراس :

— انك قلت ... سبق ان قلت .. ان هناك كيانا واحدا فقط — نعم ، كل الصور الاخرى ما هي الا صور للاصابة ، هناك واحد ... واحد فقط ، وهو شيطان .. اعرف انك تشك في هذا ، ولكنني قابلت هذا الشيطان مرة قبل هذه ، وهو قوي ... قوي .. — نحن نقول ان الشيطان ... لا يستطيع ان يؤثر على ارادة ضحيته .

— نعم ، الامر كذلك ... الامر كذلك ، ليست هناك خطيئة . — اذن ... ما الفرض من التلبس ؟ ما الفكرة ؟ — من يدري ؟ . وان كنت اظن ان هدف الشيطان ليس الشخص الذي يتلبسه ، انه نحن ... كل من في هذا المنزل ، واظن .. اظن ان الهدف هو ان يجعلنا نياس ، ان نرفض آدميتنا ، ان نرى انفسنا

ومنظر ابنها وهو يودعها القبر ؟ لماذا ؟ ليحدث عنده غفلة شعور بالذنب لانه وقد ارسله الجزويت الى الجامعة ليدرس الطب ثم العلاج النفسي ، قرر ان يصبح كاهنا ، واهم الفقيرة التي تأتي من اصل اجنبي وتنتهي الى اقلية لاثينة فقيرة ، كانت تحلم بان يصبح ابنها طبيبا ليخرجها مما تعانيه من فقر ، ولكنه نذر نفسه للكهنة ، فعاشت امه فقيرة ، تشدح احيانا ، ثم مرضت بالسرطان ولم تعالج علاجيا كافيا — لفقرها — ثم ماتت . وهكذا يشعر القسيس بالندم يعذبه ويجعله يرى اخيلة امه ، سواء وهو يلقي موعظة في الكنيسة ، او وهو يعالج الطفلة التي تلبسها الشيطان ، فيجدها احيانا تنقص شخصية امه وتحذنه بصوتها . آهي حقا تلبسها ارواح الموتى ؟ هذا هو الكاهن . ام هي تعاني من انفصام الشخصية ؟ ، او عقلها الباطن يجعلها تلعب كل هذه الادوار دون ان تدري ؟ هذا هو الطبيب .

هذه الشخصية الفريدة هي التوحيد التي يعني بها المؤلف من جنورها الى قمتها . ولكن هدفه — كما اسلفنا — ليس الا ان يجعل من هذه الشخصية اداة يخدم بها الحكمة . والحكمة هنا حكمة ميتافيزيقية قبل اي شيء ... فانقصه باكملها في هذه السطور القليلة من « لوقا » او « مرفص » — ولكن هذا الكاهن هو الذي سيقع في الهاوية ... وليس الخنازير التي تلبسها الارواح . لقد وثب الشيطان من جسد البنت الى جسد الكاهن فالتقى بنفسه من النافذة الى شارع « M » في واشنطن ، لان هذا هو الجديد في الموضوع . فكيف يفسر ذلك ؟ أهو فعل الشيطان ؟ هذا هو الخط الميتافيزيقي . ام هل انتحر الكاهن نمنا على تقصيره في حق امه ؟ هذا هو الخط الروائي . وقد ظل المؤلف طيلة الرواية ممسكا بهذين الخيطين بكلتا يديه ، جاهدا الا يلجأ الى الخرافة الصريحة ... ولكنه قرب النهاية .. اما انه يتعب ، واما انه « تأخذه الجلالة » هو الآخر ... واما انه ، بعد ان عجز الاطباء عن علاج الحالة ، وتركوا الساحة للقساوسة ، اصبح لا بأس اذن من ان نتحدث باصطلاحات التلبس والمفرته ، وهكذا في الجزء الاخير لم يعد المؤلف يقول ان « ريجان » فعلت او قالت ، ولكن « الشيطان » هو ان الذي قال وفعل .

الاحداث :

لعله يجدر بنا الان ان نلم وقائع القصة مجردة من تحليل شخصية القسيس ، ثم تحليل افكاره فيما يراه من حالة البنت — وفيما عدا ذلك لا يوجد في الرواية اي تحليل — وانما يقتصر المؤلف على سرد درامي للاحداث والحوار .

تبدأ المناصب بظواهر غريبة تحدث في كنيسة الجامعة تدل على وجود من يريد ان يستهزى بها ويهين مقدساتها . قاذورات على المذبح ، اشياء قبيحة تربط بتمثال العذراء ، كلمات فاحشة على ورق الخ ، وفي حفل صغير تقيمه الممثلة « كريس » ، نستمتع لاحسد القساوسة يحكي ما حدث للضيوف — والقساوسة في هذه الرواية كلهم يدخنون ويشربون الويسكي سواء وهم ضيوف او وهم بمفردهم . وتبدأ ايضا اعراض غريبة تظهر على البنت . فهي تأتي افعالا شاذة ، وتتفوه بكلام قبيح ، ولكن لا شيء حتى الان يدل على وجود خوارق للطبيعة ، بل مجرد حالة نفسية غريبة .

تعرض الام ابنتها على طبيب ، ثم على طبيب نفسي . ويلجأ الطبيب النفسي الى التنويم الفناطيسي ويحدث « شخصا بداخل البنت » ولكنه لا يحصل منه الا على رطانة تظهر فيما بعد انها كلام مقلوب ، وقرب النهاية تدار هذه الاحاديث المعكوسة على جهاز تسجيل في اتجاه عكسي فتتحول الى انجليزية سليمة . يحار الطب تماما في امر هذه الحالة ، تبدأ الام في البحث في كتب الشياطين والتلبس ، فتجد الكثير مما ينقله لنا المؤلف ، ومنه هذا مثلا : « يظن الناس عادة ان

في اصولها الحيوانية ، اصولها العفنة اللئيمة ، ان نرى اننا لا نساوي شيئا ... هذه هي الفكرة ، اذ انني اظن ان الاعتقاد في الله ليس مسألة استدلال عقلي على الاطلاق ، انه في النهاية مسألة محبة ، مسألة الاقتناع بإمكان حب الله لنا . انه يعرف ... ان الشيطان يعرف اين يضرب ...

اطرق براسه برهه ثم مضى يقول :

— منذ زمن ، يشئت تماما من ان احب جاري . بعض الناس ... يغفرونني ، كيف يمكنني ان احبهم ؟ هكذا فكرت ، وعذبني ذلك ، قادتني الى الياس من نفسي ، ومن هذا ... بسرعة ، الى الياس من الله ، اختل ايماني ...

نظر كراس الى ميرين مشوفا ، وتساءل :

— ثم ماذا حدث ؟

— آه ... اخيرا ادركت ان الله لا يمكن ان يطلب مني ما اعرف انه مستحيل سيكولوجيا ، ان الحب الذي يريده ... حب في ارادتي ، ولا يقصد به ابدا ان يكون محسوسا كعاطفة ، اطلاقا ... انه يريد مني ان « انصرف » بحب ، ان اعامل الآخرين بالحب . وان اعامل من يغفرونني بحب ... وهو فيما اعتقد ، حب يفوق كل ما عداه . اننا اعرف ان كل هذا يبدو واضحا ، ولكنني لم اكن اراه اذ ذاك . غشاوة غريبة ... ترى كم زوجا وزوجة يظنون انهم فقدوا الحب لان قلوبهم لم تعد تشب لرؤية احبائهم ! آه ، يا الهي الحبيب ، هنا يكمن فيما اظن ... ، التلبس ، ليس في الحروب كما يظن البعض ، بل ونادرا ما يكون في مثل هذه الحالات غير العادية ، كحالة هذه البنت المسكينة ... انه اكثر ما يكون في هذه الامور الصغيرة ، الاحقاد التافهة ، سوء الفهم ، الكلمات القاسية القاطعة التي تشب الى اللسنة ييسن الاصداغ بغير داع ، وبين الاحياء ... كفانا من هذه ، ولن نكون في حاجة الى ابليس ليدير لنا الحروب ، هذه سوف نديرها بانفسنا ، لانفسنا » .

هذا هو مستوى الرواية كلها ! ازمة الانسان كاملة في كل سطر منها ! تستمر المعركة ، والفئة موقفة الاطراف في السري ، فهي لا يؤمن جانبها بعد ان هاجمت صديق امها المخرج — فيما هو مظنون ، وفيما تقوله روحه عندما تلبسها — واهمته بالترفة بين ابويها ولوت راسه بقوة شيطانية تفوق التصور . ينهك الجهد والسهر قوى القسيس المعجوز ، فيسقط في نوبة قلبية ... مساعده « كراس » ، يهرع اليه فيجده ميتا ، ثور نائزته ، وفي لحظة ينسى صفته الكهنوتية ، وينسى اهم تعاليم « الطقوس » والتي تقضي بالا يدخل في نقاش مع « الشيطان » ، فيسب الشيطان بكلام بذيء ، ويصفه بانه لا يجرب قدراته الا في تملك البنات الصغار ... « تعال ! تعال ! » هكذا يصيح به متحديا . هنا تنتقل « الكاميرا » الروائية الى البهسو ، الام وصديقتها تسمعان ضجة ، فتصعدان مسرعتين ، فاذا بالابنة تصود كما كانت ، اما كراس انقسيش الشجاع فاشلاء على فاعة الطريق ! في قاع « الهاوية » والمارة يظنون ان الامر لا يعدو سقوط سكير افرط في الشراپ من نافذة بيته . هل قبل الشيطان التحدي ، ووثب الى جسد القسيس ، ثم القى به الى « الهاوية » ؟ ام ان القسيس الذي يعذبه الشعور بالذنب ، هزته الاحداث فانتحر ؟ الاولى هي الميتافيزيقيا ، والثانية هي الادب الروائي ، والمؤلف يترك لنا الخيار !

الشكل الروائي :

كما اسلفنا ، تتتابع احداث الرواية تنابعا زمنيا مطردا ، وتتخذ في السرد اسلوبا دراميا يعتمد على الحدث والحوار ، وهما واقعيان الى اقصى درجة ، ولا يتورع المؤلف ان يأتي بفاحش القول — وهو امر درج عليه كتاب الغرب منذ سنوات ، فما دام الناس يتكلمون هكذا

فهكذا الحوار ، وقد حوكم كثيرون من مدرسي الادب في المدارس والجامعات لانهم يتفوهون بالفاظ كهذه امام التلاميذ ، وحجتهم انهم لم يخرجوا عن دائرة عملهم كمدرسي ادب ، وهذا هو « الادب » المعاصر — بل ويعمد المؤلف في وصفه لكل ما هو شيطاني من فعل وقول ، الى الاتيان بعبارات — ثم باحداث ، يود القارئ عندما يأتي اليها ان يلقي بالكتاب ويبحث عن هذا المؤلف الشيطان و « يصفه » ! ولن نستطيع ابدا ان نأتي بأمثلة من هذا هنا ، لان المؤلف قد فاق كل من سبقوه في القدرة على اثارة الاشمئزاز ، ولكنه برغم ذلك محق تماما ، فهذه التأثيرية هي ما يجعل من هذه القصة — بكل اسف — عملا فنيا بهذا القدر من الروعة . ان جون شتاينيك في الضخم عمل له وهو « شرقي عدن » يأتي لنا بطفلة تحرق منزل ابويها وهما نائمان فيه عمدا ، ويتم لها ذلك ، وأب يصاب بمرض سري ينقله الى زوجته التي تفسر ما حدث لها على انه غضب من الله وعقاب لها على احلامها القرامية فتنتحر وفي هذه الرواية نجد « بلاتي » يجعل شتاينيك وروايته يضربان المثل في النعمة والرفقة !

ولا يفوتنا هنا وقد أتينا على ذكر « شرقي عدن » — ان نذكر ان هذه الرواية تناظرها من حيث معالجتها لقضية الخير والشر ، معالجة جريئة عميقة ، ومن حيث علو مستواها الفكري وقدرتها على البقاء ... ومما يشبهها ايضا — او ما يبدو لنا كذلك — رواية كامو « الطاعون » ، فهي ايضا تهدف الى تبيان ان الذين يتصدون للشرور التي تحوم فوق رؤوس البشر — او في غددهم اللعافية — سواء كانت شياطين ام جرائيم ، هؤلاء الذين يتصدون لها هم الذين يذهبون ضحيتها ... بان « كراس » هو بعينه « تارو » ، فقط لم يكن ألبير كامو يعيل بهذا القدر الى خوارق الطبيعة ، وعندما اورد لنا قسيسا كاثوليكيا « الاب بانيلو » فقد كان يهدف الى شيء مختلف تماما « هل يمكن للانسان ان يكون قديسا بغير اله ؟ » هذا هو اللحن الرئيسي لقصته .

وبرغم ذلك نجد تعليقات النصح تصف رواية « بلاتي » هذه بانها « من اشد الروايات اثارة للربح منذ دراكيولا » ! اذا كانت مثل هذه العبارات هي التي تجعل الناس يقبلون على قراءتها فهذه هي فائدة الصحف ، وفائدة دراكيولا .

ولا يلجأ المؤلف — كما اسلفنا — الى تحليل للاحاسيس او الخواطر الا في موقف واحد يستعرض فيه براعته القصصية الى جانب علمه الزاخر بالسيكولوجيا وما اليها . ان القسيس الطيب « كراس » ، وقد رأى البنت التي ... « تعاني الحالة » ، في احوال تحير اللب ، ما زال قادرا على تفسير كل ما يراه من ظواهر على اساس ما في علمه من فعل العقل الباطن والمرض النفسي . الطاقة الجثمانية الهائلة ، البرد القارس الذي يملك فرفتها دائما ، الروائح الغريبة التي تبعث منها ، قدرتها على قراءة افكاره ، تقليدها لاصوات احياء واموات يعرفهم ، حديثها له عن امه وانها تستحضرها له في الغرفة ، كتابات تظهر على جلدها بخطها وبخط غيرها ، سربرها الذي يهتز بعنف ، حديثها بلغات اجنبية لا تعرفها ... كل هذا يجد له تفسيرات علميا وان كان في لحظة او اخرى يضطر الى اللجوء الى تفسيرات من نوع « التخاطر » ، وهي ظاهرة اتصال اذهان الاحياء من بعيد . فهو لا يقول لنا صراحة ان هناك « شيطانا » بهذا الوضوح ، اللهم الا قرب النهاية ، وحتى هذا يمكن ان نعدّه تجاوزا ، فهو لا يستطيع ان ينسب ما يحدث من « ريجان » على انه يحدث منها ، فهي — على احسن الفروض — ليست في وعيها وما يقع منها ليس بارادتها .

ويعطي المؤلف نفسه حربة تامة في زاوية الرؤية ، فهو ينتقل من موقف لموقف متخذا لنفسه ما يسميه « بيرسي لوبوك » ، « العلم بكل شيء » لدى المؤلف الروائي . شيء واحد لا يقربه ، وهو ذهن ريجان ... بل وكل ما فيها ، لا استبعد ان المؤلف كان يخشى على نفسه من التلبس .

الغنية

أقعد لليل أجاوره ،
أستجديه الأشعار .
أصنع لحبيبي تاجا كي لا ترميه الشمس ،
... وخفا يحميه من الحجر ، -
وثوبا للمطر ؟ -
وزادا للأسفار .
ولنفسى اصنع اغنية ،
تمسك وجهي في الليل فلا ينهار .
انتظر حبيبي أن يأتي .

ليراني عريانا ،
ويرى ..
وشم الايام المجنونة في صدري
فيناولني الخمرة والخبز ،
ويفسل أطرافي بالماء وبالنار ..
انتظر حبيبي أن يأتي ،
لنسافر ونسافر ..
رغم الاسوار .

فتحي فرغلي
القاهرة

المضمون المتأفـيـز يـقـي :

ماذا يريد أن يقول لنا ؟ أغلب المؤلفين - خاصة في مثل هذه المواقف - يرفض أن يدلي بإجابة على هذا السؤال ، ويؤمن أنه هو نفسه لا يعرف . لعل الأمر كذلك . هل يريد أن يقول لنا :

ان الشر أصبح يسود العالم ، ومن يعترض طريقه . يلقي حتفه ؟
وان قدرة الله التي انتزعت الشياطين منذ الفي عام ، قد فقدناها ،
ولم تعد في صفنا ، وأنه لم يعد هناك من يحميننا منها ، وان الشياطين
تعيث فسادا في اجساد البشر وفي نفوسهم ؟

هل هو من انصار عبادة الشيطان هو نفسه ، على اساس « الامر
الواقع » ؟

أم هل هو متدين يظهر لنا ان العلم الذي نصل اليه ليس الا
« وجهة نظر » ، وان تطبيقاته محدودة المدى ... وان الانسان بحواسه
عاجز امام غيبات الكون ؟

كل هذا جائز ، ولكن المؤلف على أي حال يأتي بمقتبسات في
اول قصته ، وبغيرها بين الفصول ، قد تعيننا على استجلاء فكرة .
سنقتصر منها على ما يلي :

(١) جيمس توريللو : كان جاكسون معلقا على خطاف من النوع
الذي تعلق عليه اللحوم عند القصابين ، وكان ثقيلًا الى حد ان
الخطاف انثنى ، وقد بقي عليه ثلاثة ايام قبل ان يموت .

فرانك يوتشيري : (ضاحكا) : حقا ... كالفيل كان فسي
ضخامته ، وعندما صدمه جيمي بالقطب الكهربائي ...

توريللو (متحمسا) : اخذ يدور حول الخطاف ، وقد صبيبا عليه

الماء لنطفي القطب الكهربائي اتصالا جيدا ، وهو يصرخ ...
(مستخرج من تسجيل مكتب التحقيقات الفيدرالي لمحادثة تليفونية
في كوزانوسترا ، تتعلق بجريمة قتل وليم جاكسون)
(٢) اما الثانية ، فهي هذه :

أعلن قائد لواء امريكي في فيتنام عن مسابقة لاجتياز الرقم الذي
سجلته وحدته حتى الآن وهو عشرة آلاف قتيل . ولكن يقتل اول فرد
تجتاز به الوحدة هذا الرقم مكافأة هي الترفيه لمدة اسبوع في مقر
القائد .

(مجلة نيوزويك ، ١٩٦٩)

(٣) ... لا يمكن تفسير بعض الافعال التي اقدموا عليها ، كالكاهن
الذي وجد وقد دفن في رأسه ثمانية مسامير ... وكان هناك سبعة
اطفال ومعلمهم ، كانوا يصلون « أبانا الذي » عندما اقتحم عليهم الجنود
المكان ، استل احدهم نصل بندقيته وقطع لسان المعلم ، وجاء آخر
وجمع بضعة عيذان مما يستخدم في أكل الارز ، ودفع بها في اذان
الاطفال السبعة . كيف يمكن ان تعالج حالات كهذه ؟
دكتور توم وولى

(٤) والى جانب ذلك مقتطفات منها :

« فقالوا له نهاية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ؟ » (يوحنا ٦-٣٠)
« ولكني قلت لكم انكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون » (يوحنا ٣٦)
« من يثبت في المحبة ، يثبت في الله ، والله فيه » (رسالة
يوحنا)

محمد الحديدي

القاهرة